

مفتاح بلا باب

حمادة حامد محمود نور الدين

وجد الطفل يحيى المفتاح في حقل الذرة خلف بيت جدّه، بين جذور نبتةٍ ذابلة. كان نحاسياً ثقيلاً، أكبر من كفّه، بسنونٍ متعرّجة تشبه أمواج نهرٍ صغير، وعلى رأسه المستدير حفرٌ دقيق لا يُقرأ. نفض عنه التراب وأدخله في جيب جلبابه، وركض إلى جدّه يسأله: «لأيّ باب هذا المفتاح؟»

كان الجدّ الحاج سليمان جالساً على المصطبة أمام الدار، يقشّر قصب السكّر بأسنانه، وحين رأى المفتاح توقّف عن المضغ. نظر إليه طويلاً، وقال بصوتٍ غريب: «لا باب له يا ولدي. أو لعلّه كان له باب، لكنّ الباب مضى.»

«كيف يمضي الباب؟»

«كما يمضي كلّ شيء. حين كنتُ في سنّك، كان في أرضنا بيتٌ كبير من الطوب اللبن، له باب خشبي أخضر. فيه كانت جدّتك وأعمامك وأصوات المساء. ثم جاءت السنة التي فاض فيها النيل أكثر من العادة، وأخذ البيت. ولم يبقَ منه إلا المفتاح. رماه الماء حيث لا ندري.»

ثم أضاف الجدّ، وهو ينظر إلى القصبة التي في يده كأنها شاهدٌ قديم: «وفي السنة التالية جاء الناس يقدّمون العزاء في البيت، وهم يضحكون. لأنّ البيت لم يمت، لكنّهم ظنّوا ذلك. وأنا لم أصحّح لهم. كنت أخشى أن أبدو مجنوناً.»

قضى يحيى الليل يقلّب المفتاح بين يديه، وفي الفجر، حين كان القمر ينزل عن النخل، همس له المفتاح، أو هكذا شعر. شعر بدفءٍ في كفّه، ثم رأى بنفسه ما لم يره أحد. في آخر الحقل، حيث لا شيء إلا أعواد الذرة، ارتفع من الأرض إطارٌ خشبيٌّ أخضر، بلا جدران، بلا سقف، قائمٌ وحده في العتمة كأنه لوحةٌ معلّقة على الهواء.

خرج يحيى حافياً. وقف أمام الباب العائم. كان رقيقاً، يُرى الحقل من خلاله، وفي وسطه قفلٌ نحاسيّ مطابقٌ لشكل المفتاح. أدخله وأداره. انفتح الباب بصريرٍ ناعم، وخلفه، لا حقلٌ ولا ذرة: كان ممرّاً طويلاً، دافئ الضوء، تفوح منه رائحة الخبز الساخن.

دخل. كانت الجدران من طوبٍ أحمر، وعليها صورٌ بيضاء لوجوهٍ لا يعرفها. في نهاية الممرّ ساحةٌ صغيرة فيها بئرٌ وشجرة جميز، وعلى

حافة البئر امرأةٌ عجوز تنشر غسيلاً. التفتت إليه وقالت دون دهشة: «أخيراً. كنت أعدّ الشتاءات. هل أحضرت المفتاح؟»

«أنتِ جدّتي؟» همس يحيى.

«أنا بيتك القديم يا بنيّ. أما الجدّة، فقد سبقتني إلى ما بعد.» ضحكت ضحكةً دافئة. «تعال. أريد أن أريك شيئاً.»

أخذته من يده الصغيرة عبر غرفٍ كثيرة، وكلّ غرفةٍ لها زمن. في إحداها كان الجدّ شابّاً يجلس مع أخوته يتناولون الغداء في طبقٍ واحد. وفي أخرى امرأةٌ تحمل رضيعاً وتغنّي له. وفي ثالثةٍ فتىً ينظر من النافذة إلى النيل ويحلم بالسفر. كانت الغرف تعرض الأيام كلّها في وقتٍ واحد، بلا ترتيب، لا ماضي ولا حاضر.

قالت العجوز-البيت: «الناس يظنّون أنّ البيوت تنهار حين تسقط جدرانها. لا. البيت يسقط حين ينسى أهله أنّهم عاشوا فيه. أنا لم أسقط يا يحيى، لأنّ جدّك لم ينسَ مفتاحي أبداً. كان يبحث عنه كلّ موسم حصاد.»

مدّ يحيى يده إلى بابٍ صغير في آخر الممرّ، فقالت: «لا تفتحه الآن. هذا الباب ليس لك بعد.»

وحين وصلا إلى الساحة ثانيةً، جلست العجوز على حافة البئر وقالت: «أريدك أن تفعل شيئاً. خذ حجراً من هذه الساحة وضعه في جيبك. وحين تكبر، ابنِ بيتاً. وإن لم تستطع أن تبني بيتاً من حجارة، فابنِ بيتاً من ذكريات. وضع هذا الحجر في أساسه.»

أخذ يحيى حجراً صغيراً أملس، كأنه خرج للتوّ من نهر. وعندما همّ بالخروج، قالت له: «سلّم على جدّك. وقل له إنّ الباب لم يمضِ. الباب انتظر.»

وفي طريق عودته عبر الممرّ، لاحظ أنّ كلّ غرفةٍ يمرّ بها تخفت قليلاً خلفه، كأنها تغفو بعد أن اطمأنّت. وفي الغرفة الأخيرة رأى مقعداً خشبياً صغيراً بحجمه، عليه اسمه محفوراً بسكّين: «يحيى». لم يكن قد وُلد حين فاض النيل. لكنّ البيت كان يعرفه من قبل أن يأتي.

خرج من الباب العائم، فأغلق خلفه من تلقاء نفسه، ثم تلاشى في الهواء كأنه لم يكن. وجد يحيى نفسه واقفاً في حقل الذرة، والشمس تطلع، والمفتاح في يده يبرد شيئاً فشيئاً، حتى صار قطعة نحاسٍ عاديّة، وفي الجيب الآخر حجرٌ أملس دافئ.

جلس يحيى على التراب الرطب، وأصغى. كان الحقل ساكناً إلا من حفيف الذرة، لكنّه سمع، تحت الحفيف، شيئاً آخر: أصواتاً بعيدة، ضحكات أطفال، ونداء امرأةٍ تدعو أولادها إلى العشاء. لم يخف. عرف أنّ هذا هو البيت يتنفّس، وأنّه لن يسمعه إلا من حمل مفتاحه.

ركض إلى جدّه، الذي كان قد استيقظ ينظر إلى الحقل بقلقٍ لأنّ الولد غاب. وضع الحجر في كفّه وقال بصوتٍ يخنقه الركض: «سلّمت على بيتنا. قال إنّ الباب لم يمضِ. الباب انتظر.»

جمد الجدّ في مكانه، ثم انحنى ببطءٍ وجلس على الأرض، يمسح الحجر بإبهامه، ويبكي بصمتٍ كطفل. قال أخيراً: «ستّين سنةً وأنا أحمل ذنبي. كنت المسؤول عن إغلاق الباب في تلك الليلة. ظننتُ أنّي أضعتُ البيت.»

«لم تضيّعه يا جدّي. ما زال هناك، في الذرة.»

في الخريف، جمع الجدّ أبناءه وأحفاده، وأخرج الحجر من صدره، ووضعه في حفرةٍ صغيرة في أرضٍ فارغة خلف الدار. قال: «سنبني هنا.» وبنوا، بيدهم، بيتاً صغيراً من الطوب اللبن، له باب خشبيٌّ أخضر. وعلّقوا المفتاح النحاسيّ فوقه كحلية.

ولم يعد أحدٌ في الدار يبحث عن شيءٍ ضائع. أما يحيى، فكبر، وصار مهندساً يبني بيوتاً في المدن. ويقال إنّ كلّ بيتٍ بناه يبدأ بحجرٍ صغيرٍ أملس يضعه في الأساس، لا يخبر به أصحاب البيت. ويقول لنفسه إنّ البيوت لا تُبنى بالأسمنت وحده، بل بشيءٍ يشبه الانتظار.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app